أبو عبيدة

٣ (١)

أين نلتمس بحث هذه المسألة وتبين الوجه فيها(٢) ؟ قد يقال إن كتاب النقائض هو أكبر المصادر وأقربها وأوفاها بما نتساءل عنه ، وهو كتاب مجموع متحد الموضوع . ويقول الأستاذ أحمد أمين عنه إنه أكبر أثر لأبى عبيدة بين أيدينا يدل على طريقته ومنهجه فى التأليف ولغته وأسلوبه . ولكن فى نسبة هذا الكتاب ، فى صورته التى بين أيدينا ، لأبى عبيدة نظراً نرجو أن نرجع إلى بيانه . فلنتركه الآن ، ولنجعل أصلنا الذى نرجع إليه فى تبين أسلوب أبى عبيدة وخصائصه فى قصصه فى تلك الفصول التى نقلها عنه أبو الفرج فى أغانيه . فمن المتفق عليه أن أبا الفرج ثقة فيما ينقل ، متثبت من الأصل الذى ينقل عنه ، كما يصفه ابن النديم بقوله : « وأكثر تعويله كان على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » . وهو — فيما يخيل إلينا — نقل فى كتابه معظم كتاب الأيام لأبى عبيدة ، وهذا إلى أنه كان ينقل — فيما يبدو — دون اقتضاب أو تصرف .

والذى يظهر لأول وهلة من قراءة هذه الفصول أن أبا عبيدة كان راوية مدققاً ، وقد اصطنع أسلوب المحدّثين فيما يروى عن الأعراب ؛ إذ يسند الأخبار إلى أصحابها ، ويتحرى فى هذه النسبة الصدق والدقة ، حتى إذا اشتبه عليه الأمر فى أحد هؤلاء الذين يسند إليهم ، عبّر عن شبهته ، وذكر الأمر كما وقع

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) تساءل الكاتب فى نهاية الجزء الأول من المقال : ماذا صنع أبو عبيدة بالأخبار والأقاصيص أو بعبارة أخرى ماهو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

له ، فيقول مثلا : « وحدثني رجل يخيل إلى أنه ابو يحيي الغنوى » . ومثل هذا التحرى غريب فى مثل هذه المواضع ، ولكنه يدلنا على أن الرجل كان شديد التحرج فى الأخذ بطريقة المحدّثين ، فى رواية هذه الأخبار.

ومن هذا القبيل أيضاً ما يأخذ به نفسه من إيراد الروايات المختلفة ، إذ كان يروى عن غير واحد فى الموضع الواحد ، فيقارن بين هذه الروايات بعضها وبعض ، حين يحتاج الأمر إلى المقارنة ، وذلك حين يقع الاختلاف بينها مهما كان هين الأمر طفيفاً . ولدينا من ذلك مثل قريب فى « مقتل زهير بن جذيمة العبسى » حين يذكر موطن زهير وموطن بنى عامر ، فأبو سوار الغنوى يذكر أن بنى عامر كانوا قريباً من أسرة زهير ولا يُشعَر بهم . ثم يعقب أبو عبيدة على ذلك بقوله : « قال عبد الحميد وأبو حية : بل بنو عامر بدَمْخ وزهير بالنفرات، وبينهما ليلتان أو ثلاث» . ثم لا يقنع ضميره الروائى بذلك ، فيضيف رواية ثالثة عن سليمان بن المزاحم المازنى عن أبيه أن بنى عامر كانت بالجريثة وزهير بالنفرات .

ومثل هذا كثير عند أبى عبيدة مما قد يضيق به البعض ، ولكنه على كل حال مظهر من مظاهر الدقة التى نلاحظها دائما عنده ، والتى يتميز بها عن رجل كالأصمعى ، كما سنرى بعد.

وهناك ظاهرة بينة فى الروايات التى يرويها أبو عبيدة عن الأعراب تصدر ذلك المصدر ، وهو التفصيل فى الصور التى تؤديها هذه الروايات . وربما كان هذا التفصيل من الأشياء التى كان خصومه يستندون إليها فى اتهامه بالكذب واختلاق الأخبار . ولكنه عندنا مظهر من مظاهر النزوع إلى الدقة التى تدفعه إلى الاستيفاء ؛ فهو حريص كما رأينا على استيفاء الروايات المختلفة كما سمعها ، وهو حريص على استيفاء أجزاء الصورة وأن يؤديها كما رويت له ، فى العبارة والمعنى. ومن ذلك كانت رواياته لأيام العرب أصدق صورة وأدقها للحياة العربية ، كما كان يتمثلها هؤلاء الأعراب ، وهم أقرب الناس صلة بها ، وأدناهم إلى تمثلها : فالعبارة عربية بدوية ، والسياق عربى بدوى ، والصور عربية بدوية خالصة ، والتفصيل فى أجزاء هذه الصور هو ما نعهد فى الصور التى نراها فى الشعر الجاهلى ، كما فى شعر لبيد مثلا .

ولعلنا نستطيع أن نتمثل ذلك كله تمثلا قويّـا إذا نحن نظرنا فى هذه الصورة

التى تجئ فى فصله عن « مقتل خالد بن جعفر » وهى تصور ناقة فى حال حلبها :

« . . . فأتى الابل ، فوجد حالبين يحلبان ناقة لهن يقال لها اللفاع ، وكانت لبونا كأغزر الإبل ، إذا حلبت اجترّت ، ودمعت عيناها ، وأصغت برأسها ، وتفاجّت تفاج البائل ، وهجمت فى المحلب هجماً حتى تسنّمه ، وتجاوبت أحاليلها بالشخب هثا وهثيما حتى تصفّ بين ثلاثة محالب . »

فهذه القطعة تعتبر من أروع مُثُل الفن التصويرى الفطرى ، دقة فى الوصف ، واستيفاء لمقومات الصورة التى تمثلها من نواحيها المختلفة ، وصدقاً فى العبارة التى تعبر عنها بمعانى ألفاظها وجرسها ونبرات حروفها جميعاً ، تعبيراً طبيعيًّا لا صنعة فيه ولا تكلف .

على أن هذا النزوع إلى الدقة الذى نراه فى تلك الظواهر كما يكون مرجعه إلى الروح العلمية التى تفرض على صاحبها الأمانة فى الرواية ، والدقة فى النقل عن الرواية ، كما هو الشأن عند المحدّثين ، يمكن أن يكون مرجعه أيضاً إلى الروح الفنية التى ترى فى هذه الدقة مظهراً من مظاهر الكمال الفنى ، فى إخراج الصورة حية نابضة ، وفى إبرازها بجميع أجزائها وملامحها وقسماتها ، وفى شتى الملابسات التى تلابسها وتحيط بها وتنشر الظلال حولها وتكيف الجو الطبيعى لها .

ويظهر أن كلا من الروحين : الروح العلمية والروح الفنية ، كان عاملا قوى الأثر فى عقلية أبى عبيدة ، وقد كانا يجتمعان فى هذا النزوع إلى الدقة ، ويختلفان فى بعض المظاهر الأخرى ، وإن كنا نرجح أن الروح الفنية كانت شديدة السيطرة عليه ، بعيدة الأثر فى احتفاظه بهذه الصور كاملة مفصلة على النحو الذى نراه . أما الروح العلمية فنرى من مظاهرها ذلك الحرص على تمييز الروايات المختلفة ، وإفراد كل رواية على حدتها ، وإن ترتب على ذلك تشتيت أجزاء الصورة الواحدة بين هذه الروايات التى تتكامل فيما بينها . ولولا هذه الروح العلمية المتحرجة لاستطاع دائماً أن يجمع بين هذه الروايات فى رواية واحدة ، تضم أجزاء الصورة جميعاً .

ولابد لنا من مثال يوضح هذا المنهج الذى يصدر عن هاتين الروحين معاً ، وليكن هذه القطعة من خبر ورقاء بن زهير ، وهى التى تمثل شاس بن زهير وهو عائد من عند النعمان .

ففى هذه القطعة نرى أبا عبيدة يورد روايتين ، تشتمل كل واحدة منهما على بعض أجزاء الصورة ، وتظهرها من إحدى ناحيتيها . فالأولى تصور ما كان شأس يحمله معه من لدن الملك النعمان : « مسكا وكُسًا وقُطُفاً وطنافس » وتصور حالة الجو حين أناخ راحلته ، وموضع الإناخة : « فى يوم شَمال وقرّ ، على ردهة فى جبل ، ورياح بن الأسك" أحد بنى رباع . . . على الردهة ، ليس غير بيته بالجبل » . وهذا هو أحد جانبى الصورة أبرزته هذه الرواية ، ثم تجمل صورة اغتساله ومقتله بعد ذلك ، وتطويها فى سرعة . فأما الرواية الثانية فتجمل هذه الصور التى عنيت الرواية الأولى بإبرازها مفصلة ، وتفصّل ما أجملته ، فتصور وقت الإناخة بأنه كان فى الظهيرة ، ثم تذهب تبرز الجانب الآخر من الصورة ، فتصور شأس بن زهير وقد « ألقى ثيابه ، ثم قعد يُهَريق عليه الماء » ، وتصوره وهو قاعد عريان : « فاذا هو مثل الثور الأبيض » ، ثم تصور ما كان بين رياح وامرأته إزاء ذلك المشهد ، إذ يقول لها : « أنطينى قوسى ، فمدت إليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لئلا يقتله » . ثم تفصل صورة مقتله بسهم ليس فيه نصله : « فأهوى عجلان إليه ، فوضع السهم فى مستدق الصلب بين فقارتين ، ففصلهما ، وخر ساقطاً . وحفر له حفراً ، فهدمه عليه ، ونحر جمله وأ كله » . وإلى هنا يمكن أن يقال : إن الصورة تمت ، واستطاع القارئ أن يتمثلها من جوانبها المختلفة . ولكن أبا عبيدة يلاحظ — ولنزعته الفنية شأن كبير فى هذه الملاحظة كما يبدو — أنه لا يزال فى الصورة موضع خلل ، فما بال هذه الهدايا التى كانت مع شأس ؟ وبذلك نراه يستكمل هذا النقص ويسد ذلك الخلل ، فيعقب على ذلك بقوله : « وقال عبد الحميد : أ كل ركوبته وأولج متاعه بيته » .

فهذا مثال يبين لنا كيف كان يصنع أبو عبيدة بالروايات التى يرويها عن الحياة العربية ، وكيف كان فى سبيله التى اتخذها فى ذلك يتردد بين الروح الفنية والروح العلمية التى كانت بيئة البصرة إذ ذاك تفرضها فرضاً ، وكانت دراسته للحديث وفن الرواية ، وتلقيه عن مثل أبى عمرو ، يأخذه بها أخذاً شديداً . ومع ذلك استطاع — كما رأينا — أن يوفق بينها وبين الروح الفنية ذلك التوفيق ، وقد أعانه عليه ما ذكرنا منذ قليل من اشتراكهما فى تطلب الدقة .

ولعلنا نستطيع أن نتبين أسلوب أبى عبيدة فى هذا فوق ما أوردنا إذا نحن

قارناه بغيره، كأسلوب الأصمعى مثلا . وللأصمعى قطعة بين أيدينا تصور ذلك الموضوع نفسه الذى رأينا، فلننظر ماذا صنع، ولنقارن صورة بصورة. يقول الأصمعى : « حدثنى غير واحـد من الأعراب أن سبب مقتل زهير العبسى أن ابنه شأس بن زهير وفد إلى بعض الملوك، فرجع ومعه حباء قد حبى به، فمر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة، وأبيات من بنى غنى، على ماء لبنى عامر أو غيرهم. قال: فاغتسل فناداه الغنوى : استتر، فلم يحفل بما قال، فقال : استتر ويحك ! البيوت بين يديك، فلم يحفل، فرماه الغنوى رياح بن الأسك بسهم، أو ضربه، فقتله. والحى خلوف ».

فلندع ما نفقده فى هذه القطعة من الروح العلمية التى نراها عند أبى عبيدة ظاهرة، وإن تكن مع ذلك متجملة، ولننظر فيما وراء ذلك نظرة سريعة. فسنرى الفرق واضحاً بين الرجلين : بين ما يعرضه أبو عبيدة فى رواياته المتفرقة وما يعرضه الأصمعى فى رواياته المجتمعة. فبالرغم من تشتت أجزاء الصورة عنـد أبى عبيدة نراها واضحة الملامح بينة الظلال حية نابضة، وقد استطاع أن يضع هـذه الأجزاء، كما تؤديها الروايات المختلفة، فى سياق فنى. أما الأصمعى فلا نكاد نجد عنده شيئاً من ذلك. فهـذه القطعة التى رأيناها لا تستطيع أن تحدث لنا تلك المتعة الفنية التى أحسسناها عند أبى عبيدة، إذ كانت لا تنقل إلى خيالنا الا الخطوط الأولية للصورة، أو الهيكل العظمى للقصة، أما ملامح الصورة ونبضانها وروحها المقومة لها، فلا أثر له فيها.

وكما أن هذه المقارنة بين هاتين القطعتين جديرة بأن تبين لنا عقلية أبى عبيدة والنزعات التى كانت تسيطر عليـه، فانها توضح لنا الفرق بين هذين الرجلين اللذين جمعهما عصر واحد، وبيئة واحدة.

وبعد، فقد كان أبو عبيدة — فى جملة القول — رجلا مرهف الحس، دقيق التصور، قوى الخيال، حاد الذكاء. وكان يجمع بين خصائص العلماء وخصائص رجال الفن. وبذلك استطاع أن يؤدى صور الحياة العربية واضحة قوية، وأن يظفر فى ذلك بثقة معاصريه به وإكبارهم له. ولو أن تراثه من هذه الناحية وصل إلينا كاملا لكان لنا أن ندّعى العلم بالحياة العربية علماً أدق وأوفى وأشمل.

طه الحاجرى